حجاجية الصورة الفنية في الحديث النبوي

prophet's speeches Argumentative in artistic image in

الأستاذة: حورية عميروش.

أستاذة محاضرة (أ)

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

الهاتف: 0771029202

البريد الالكتروني: houriaamir15@gmail.com

الملخّص:

يهدف هذا المقال إلى بيان طبيعة الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، وإجلاء قيمتها والهدف من توظيفها، متسائلين هل الرسول صلّى الله عليه وسلّم استخدم في لغته الشريفة صور البيان من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ومجاز لأجل التحسين اللّفظي وجماليات القول أو أنّه ذهب عليه السلام إلى أبعد من ذلك، وهو الاعتماد على هذه الألوان البيانية كدعائم وآليات حجاجية لإقناع المخاطبين عامة بما يبلّغهم به من أحكام وتكاليف، باعتبار هذه الآليات توضّح المعنى وتجسّده، وتجعله قريبا من واقع المكلّفين وعالمهم فيذعنوا لقوله.

الكلمات المفاتيح: الحديث النبوي، الحجاج، الصورة البلاغية، التشبيه، الاستعارة.

Abstract:

This article has been treating argumentative in rhetorical image, in prophet's Mohammed speeches ¨¨ prayers of god don him¨¨, and that's based on what's in trope, metaphor, simile, representement that holds a lot of meanings, the research purposes to show their secrets,

The aim of this study is to explain the nature of rhetorical image in the prophet' speeches, and also to demonstrate that this image has not only an artistic values, but it has an convince function, so we show the nature of the impact that caused the metaphor, simile on a person's mind, feelings, because the prophet's speeches is consider as an argumentative discourse

Word clef :

Prophet's speeches, argumentative discourse, rhetorical image, analogy, metaphor

مقدمة:

حظي النص القرآني باعتباره نصا دينيا مقدسا بدراسات كثيرة تناولته من مستويات مختلفة صوتية ومعجمية وتركيبة ودلالية، كما طبّقت عليه مناهج عدة أسلوبية وسياقية وتداولية وحجاجية... ممّا أسفر عن عدد يفوق الحصر من الدراسات التي أنجزت حوله من مقالات وكتب ورسائل ماجستير ودكتوراه، وبالمقابل من ذلك نجد الحديث النبوي الشريف الذي يعدّ نصا دينيا مقدسا وثاني أصدق كتاب بعد كتاب الله تعالى يفتقر إلى الكثير من

الدراسة لأنه أرض خصبة تحتاج لمن يقلب تربتها، فهي تزخر بالكثير من الدلالات والمقاصد السامية والآليات اللغوية والاستراتيجيات الخطابية ، والقيم التواصلية.

إنّ الدراسات البيانية والأسلوبية للحديث النبوي الشريف ضئيلة لا تستوفي ما فيه من فيض والمعاني والمقاصد.

ومع مجيئ التداولية كمنهج لساني حديث يُعنى بالخطاب وتحليله من زاوية مرسله ومتلقيه وسياق تلفظه أخذت الأنظار تتجه إلى الأحاديث النبوية الشريفة لدراستها وسبر أغوارها واستخراج ما تزخر به من كنوز لغوية وتواصلية ، ودلالات ومقاصد ، باعتبار الحديث الشريف بما يتوفر عليه من عناصر داخلية وخارجية في خطابه يمثل مدونة قابلة لتطبيق المنهج التداولي عليه ، فهو يستجيب لمعطيات نظرية التواصل، بما يتوفر عليه من أطراف عملية التواصل ، واشتماله على عنصري القصدية والسياق ، وعلى الأفعال الكلامية ، والاستراتيجيات الخطابية كالاستراتيجية التوجيهية الغالبة عليه.

إنّ الحديث النبوي الشريف ينهض في لغته وتعبيره على أساس الإقناع والتأثير وهو بذلك يتجه لمخاطبة العقل والوجدان لأنّه مثل القرآن الكريم يتوجه إلى مخاطبة متلقين تختلف مشاربهم ومداركهم وأجناسهم، وفئاتهم وأعمارهم ومراكزهم ومستويات إدراكهم، فكان عليه أن يكيّف خطابه على حساب كل صنف وأن ينفذ بكلامه إلى قلوبهم جميعا وأن يقنعهم بما جاءهم به من قيم وأفكار ومقاصد، ويحرك عواطفهم ويستميل نفوسهم للإقبال على دعوته، وقد استخدم في ذلك لغة فيها من وسائل الإقناع والتأثير وآلياتهما الشيء الكثير ممّا يجعلنا نطرح في مقاربتنا الإشكالية الآتية: ما حظ لغة الحديث النبوي الشريف من الصورة البيانية؟ وما طبيعة هذه الصورة؟ وما هي أبعادها الحجاجية في التشبيه والتمثيل والاستعارة؟

إنّني أسعى في هذه المداخلة إلى الكشف عن بلاغة الصورة الفنية في الحديث النبوي واستخراج طاقاتها الحجاجية التي من خلالها تظهر قوة الصورة الفنية على الإقناع والتأثير، وحمل المتلقي على الإذعان والتسليم، فتوجّهه بما تملكه من طاقة حجاجية وجمالية على القيام بالفعل عن قناعة تامة.

ولتحقيق هذه الغاية حاولت دراسة بعض الأحاديث المنتقاة من كتب السنة لإبراز ما انطوت عليه من عناصر الصورة الفنية.

1_بلاغة الحديث النبوي الشريف:

إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أفصح العرب لسانا، أعطيت له جوامع الكلم، فجاء بيانه ساحرا جذابا، وسهلا طلقا عذبا مسترسلا ، لا تكلّف ولا تصنّع فيه، ولا غرابة أو وحشية في الألفاظ والأساليب ليتوافق هذا الأمر مع الغاية من رسالته وبعثته المتمثلة في تبليغ رسالة ربّه وتبيين ما نزّل للناس في القرآن، ولإتمام مكارم الأخلاق مصداقا لقوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون)[1]

وقوله في موضع آخر: (وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين) [2]

لقد أعدّ الله نبيّه الكريم عليه السلام لتبليغ الرسالة فخلع عليه صفات الكمال الجسدي والنفسي، فقد كان عليه السلام أصحّ الأنبياء مزاجا وأكملهم جسدا، وأحسنهم وجها وصوتا فقد نزّهه الله عن عيوب النطق الخلقية، وجاءت فصاحته هبة ربانية متمكنة في طبعه لا تخرج عنه[3].

وصف الجاحظ بلاغة كلام الرسول عليه السلام قائلا: " وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونُزّه عن التكلّف، وكان كما قال اللّه تبارك وتعالى قل يا محمد (وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب

التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق..."[4]

فالخطاب النبوي يرتكز على سمة الإيجاز في اللّفظ والتكثيف في المعنى، والبعد عن الغريب والوحشي والهجين من الألفاظ، وكراهة التكلّف والتشدّق والتقعّر في الكلام، فقد روى جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم قال: " إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإنّ من أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون" [5]

وعن هذه الفصاحة والإيجاز والقدرة على إفحام الخصم يقول الجاحظ أيضا: " وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته... لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلاّ بالصدق، ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر... ثمّ لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين عن فحوى من كلامه صلّى الله عليه وسلّم."[6]

لقد أودع الله تعالى نبيّه الكريم قدرات لغوية وبيانية لتلقّي كلامه وتبليغ وحيه " وهذه الخصوصيات التي يتمتّع بها هذا النوع من المخاطب يمكن أن ندرجها ضمن ما يسمى بالقدرة التواصلية ، وهي قدرة لسانية ولغوية توظّف فيها مستويات صوتية ومعجمية وتركيبية ودلالية من الخطاب ، تترجم نواياه التواصلية، ولأنّ القدرة التواصلية هي

مجموعة القدرات التي يستطيع بواسطتها شخص أن يدخل في سيرورة تواصلية مع الآخرين، فإنّها لا تقوم على القدرة اللّسانية وحدها، أي القدرة على تكوين جمل صحيحة لغويا، بل إنّها تأخذ بعين الاعتبار قدرات لسانية تتدخّل في سيرورة التواصل، وترتبط باستعمال اللغة أكثر ما ترتبط بنسق نحوي شكلي... وقد جزّأ بعض الدارسين هذه القدرة إلى ثلاثة مكوّنات أساسية توضّح المتغيرات الأخرى التي تتدخل في القدرة التواصلية وهي:

1. قدرة نحوية ترتبط بمعرفة المتعلّم ببنيات اللّغة.
2. قدرة سوسيولسانية تتجلى في معرفة المتعلّم بما هو مقبول عند الاستعمال للغة من طرف جماعة لغوية.
3. قدرة استراتيجية تتعلّق باستعمال اللغة من أجل بلوغ أهداف معيّنة."[7]

وبالنظر في هذه القدرات نقول جازمين أنّ الرسول عليه السلام قد امتلك فنّ التواصل بامتلاكه لناصية الكلام، وبما اشتمل عليه من معرفة بأحوال مخاطبيه وكيفية محاورتهم واستمالتهم والتأثير عليهم، وقدرته على توجيههم الوجهة التي يريد دون غلاظة أو فظاظة بل باللّين والرحمة وحسن المعاملة.

إنّ الحديث النبوي الشريف خطاب وعظ وإرشاد يقصد إلى تغيير وضع قائم بالحجة والموعظة الحسنة، وهذا ما يجعله يستخدم تقنيات إقناع وحجاج مختلفة، إنّه خطاب سمته الغالبة الإبلاغ كما يقول العقاد الذي لاحظ أنّ " كلام النبي المحفوظ بين أيدينا إمّا معاهدات ورسائل كتبت في حينها ، وإمّا خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها، وروعيت الدّقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع. والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعا، حتى ما جرى منه مجرى القصص، أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين، أو مجرى الدعاء الذي يلقّنه المسلم ليدعو الله على مثاله."[8]

ولأجل هذا الإبلاغ نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يستعين في كلامه بالتشبيه والتمثيل والاستعارة أي العدول في التعبير عن الحقيقة إلى المجاز أو الصورة ليزيد خطابه وضوحا وقوة في الإقناع والتأثير بما يخلعه على معانيه من صور حسية تجسد على هيئة ملموسة مشاهدة، وهذه الطريقة في التعبير تعتبر آلية حجاجية نجدها قائمة بشكل ظاهر في لغة الخطاب النبوي الشريف.

وقد جاءت بلاغة الحديث النبوي الشريف بلاغة إقناع أكثر منها بلاغة صورة ذلك أنّ الصورة فيها تتجه نحو غرض الإيضاح والإقناع والحجاج، والتعبير بالمجاز أو الصورة يكتسب قيمته الدلالية والوظيفية من كونه يحمل بعدين أولهما إقناعي يتجه إلى العقل وينهض على الحجة والدليل أو الاستدلال، والثاني جمالي تأثيري يخاطب الوجدان، ويسعى إلى إثارة عواطف النفس وانفعالاتها.

والذي نخلص إليه في شأن بلاغة الرسول عليه السلام أنّها بلاغة جاء فيها كلامه في أعلى درجات الكمال والسمو خال من التكلف والغرابة ، والتعقيد والعي لأنّ هذه الأوصاف في الكلام تقف كلّها عائقا دون بلوغ المعنى إلى سامعه ، فتعطّل بذلك وظيفة الإبلاغ التي هي الهدف الأسمى من رسالته.

2_مفهوم علم البيان والصورة الفنية:

اهتم النقاد والدارسون حديثا بمصطلح الصورة الفنية اهتماما كبيرا باعتبارها ركنا أساسيا من أركان العمل الأدبي، وهي إلى ذلك لبّ العمل الشعري، ووسيلة الناقد في الحكم على أصالة الأعمال الأدبية.

وتعدّ الصورة الفنية بما فيها من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية من جماليات اللغة ومحاسن الكلام التي تسمو به إلى الدرجة الرفيعة من البيان والتأثير، والسحر والروعة، لما تحدثه في نفس المتلقي من انفعال انبساطا أو انقباضا، فهذا الجانب الجمالي

التخييلي الشعري كان ولا يزال العامل الأساس المهيمن على دراسة الصورة، لكنّنا نجد لها وجها آخر يكتسي أهمية بالغة في الخطابات ذات البعد الإقناعي، إنّه البعد الحجاجي التداولي فالصورة الفنية تستخدم كآلية حجاجية يتوسل بها إلى الإقناع والتأثير على المتلقي، إذ يستعين بها المخاطب في إثبات ما يدعيه من معان وأفكار، فتأتي بغرض التأكيد والتوضيح والتجسيم...

فماذا يعني الدارسون بمصطلح الصورة؟ وكيف تكون الصورة حجاجية ؟ وما مدى حضورها في الحديث النبوي كآلية أو تقنية من تقنيات الحجاج فيه؟

إنّ الأحاديث النبوية الشريفة تنطوي على طاقات جمالية وحجاجية من خلال ما توفّر في هذه الأحاديث من عناصر الصورة باعتبار الرسول صلى اللّه عليه وسلّم كثيرا ما يستعين بالاستعارة والتمثيل التشبيه والكناية لتوضيح كثير من الأحكام والمعاملات والأخلاق وأمور الدين والحياة، فهو يعبر بالصورة المحسة المجسمة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، ويستخدمها لتثبيت المعاني وتعميقها وتقريبها من أذهان المكلفين المرسل إليهم عبر الزمان والمكان، " والصورة في الحديث النبوي الشريف مع بلاغتها وجمالها اللّفظي لا تكون إلاّ لغرض يتعلّق بالمعنى، وهي أصيلة في موقعها ولا يمكن تجريد المعنى منها، ولذا فإنّ كلّ صورة في الحديث الشريف هي صورة حجاجية تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي ، وتعمل على التمكين لمقتضى الرسالة، أو معالجة وضع قائم ، أو شرح حقيقة غيبية، أو غير ذلك من الأغراض باستخدام كل الوسائل اللغوية والمنطقية الممكنة التي يسمح بها المقام."[9]

والصورة البيانية في الحديث النبوي غايتها كما ذكرنا أن تكون وسيلة وآلية توضيحية يراد بها تقريب المعاني والأفكار وإخراجها من الخفي الغامض المبهم إلى الجلي الواضح الظاهر، ولذلك جاءت مستمدة من العالم الواقعي الثقافي والاجتماعي للمتلقين، ومن بيئتهم الطبيعية ومنظومتهم المعرفية.

وهي صورة حسية قائمة على الحس أي مرتبطة بحاسة البصر والسمع واللّمس والشم والذوق.

لذلك يعدّ الإلمام بموضوعات علم البيان من المسائل الهامة التي ينبغي الإحاطة بقضاياها، لمن يريد فقه الخطابات الرفيعة ذات البيان السامي كلغة القرآن الكريم والحديث الشريف وعيون الشعر والخطب.

والبيان في معناه العام هو الوضوح والإبانة والإفصاح عن مكنونات النفس والفكر[10] ، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بفصاحة اللفظ، وحسن اختياره ونظمه مع غيره في الجملة ، ويكون بعيدا عن الغرابة والتوعّر والمعاظلة في اللّفظ والمعنى، لأجل التواصل الفعّال.

أمّا البيان الأدبي ، فنعني به البيان الذي تكون فيه الألفاظ المستعملة تتأسّس على الانتقال باللفظ من دلالته الوضعية المعيارية إلى مستوى أعلى تكون فيه الألفاظ قد انتظمت في علاقات جديدة، واكتسبت معاني مغايرة لمعانيها الأولى تزيدها عمقا وتأثيرا وتلك الدلالة الجديدة هي ما يسمى بدلالة الصورة الفنية وهي دلالة تعتمد الإبداع والغرابة والإمتاع.

إنّ علم البيان حسب تعريفات البلاغيين هو" علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[11] ، وهذه الطرق المختلفة هي التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وكلّها ممّا يشكّل موضوع الصورة الفنية التي هي جوهر البلاغة وعمودها، ذلك أنّ " الصورة الشعرية متولدة بفعل الخيال الخلاّق، ذلك الخيال الذي يجمع بين ألوان وخيوط تتولف لتخرج صورة فيها أمشاج ما بنيت منه، ولكنّها بنية جديدة مختلفة هذا التوليف قائم على علاقة التشابه بين مفردات هي في الحقيقة متباعدة، ولكنّها بفعل الخيال، وصنعة الشاعر تمتزج وتخرج في كيان جديد، وفي هذا

النوع من العلاقة يكون الباث والمتقبّل متقابلين في التصوير الذي يقوم على هذا النوع من العلاقات، فالأول يؤلّف والثاني يحلّل..."[11]

أي أنّ الخطاب هنا لا يصل عن طريق المعاني التي تحملها الكلمات المعجمية denotation وإنّما يصل عن طريق المعاني التي تحيط بالكلمات المعجمية، أي المعاني الإيحائية السيميولوجية(connotation)"[12].

فليست الدلالة المعجمية في الصورة الفنية إلاّ مطيّة لبلوغ الدلالة الفنية الرمزية ذات المعاني الإيحائية الكثيفة، إذ أنّ العلاقة بين المعنى الوضعي والمعنى المجازي هي التي تنشئ ما يسمى بالعلاقات البيانية " ... إذ تبنى على أساس المشابهة أو تكون مبنية على أساس المجاورة واللزوم ، ذلك أنّ هذه العلاقات قد تربط بين أمرين متشابهين بالتشبيه والاستعارة مع فارق في التركيب النحوي لكل منهما، فإذا كان التشبيه يستند في تركيبه إلى ذكر الطرفين معا بتمثيل صورة المشبه في صورة المشبه به فإنّ الاستعارة قد تستغني عن أحدهما دون الآخر، إمّا بحذف المشبّه وتسمى استعارة تصريحية، أو بحذف المشبه به وتسمى استعارة مكنية، وقد تربط بين أمرين متلازمين في الدلالة يكون أحدهما مضمّنا في الآخر أو جزءا منه أو سببا فيه أو لازما عنه، ويسمى هذا الارتباط الدلالي في البلاغة العربية "الدلالة اللزومية" أو "المعنى البعيد" ويصطلح على تسميته في النقد الأدبي "الإيحاء" connotation لأنه يقوم على استدعاء اللوازم فيكون بين المعنى المباشر والمعنى البعيد سفرا من المعاني اللازمة عن بعضها البعض، وينهض بتأدية هذه العلاقات اللزومية في البلاغة العربية المجاز المرسل والكناية مع فارق في التركيب النحوي لكل منهما..."[13]

إنّ الصورة الفنية تتطلّب الاستنباط والتأويل لاقتناص المعاني الخفية ذلكّ أنها " تعبير استبدالي يقوم فيه الشيء المشاهد أو الملموس أي الصورة بديلا عن الفكرة أو

المعنى أو المفهوم، سواء جاء هذا التعبير بالصورة للكشف عن كوامن نفس المتكلّم أو لمجرّد الإمتاع أو للتأثير والمحاجة والإقناع."[14]

يعتبر جابر عصفور الصورة الفنية " طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير، ولكن أيا كانت هذه الخصوصية أو ذلك التأثير فإنّ الصورة لا تغيّر من طبيعة المعنى في ذاته، إنّها لا تغيّر إلاّ من طريقة عرضه، وكيفية تقديمه." [15]

إنّ المعنى المعبّر عنه بالصورة يظلّ هو نفسه لا يمسّه التغيير وكلّ ما تقوم به الصورة هو أنّها تشخّصه وتقرّبه للأفهام ، أي تزيده وضوحا، وتعمّق معانيه، إنّها تقدّمه بطريقة مختلفة وثوب مغاير.

هذه الطريقة المختلفة في التعبير هي انزياح عن المألوف وخرق للمعيار، وينتقل بذلك التعبير من مستوى إلى مستوى آخر وتتعطّل الدلالة الأولية المستفادة من الألفاظ الظاهرة، ويصبح المراد معنى آخر جديد له صلة بالدلالة الأولية، " فهناك تجاوز في إيقاع العلاقات النحوية بين ما لا تقع فيه عادة، أو إن شئت كسر قانون الاختيار بين المفردات بالطريقة المسموح بها لا يسوّغه إلاّ فهم المخاطب، ومعنى ذلك أنّ هناك اتفاقا بين المتكلم والمخاطب أبرمه الاتفاق اللغوي ونظامه وقوانينه على علاقات لغوية معينة عندما تجري في مجالها المألوف يكون لذلك دلالة خاصة، وعندما لا تجري في مجالاتها المألوفة _ ويكون ذلك أيضا بقانون خاص _ فإنه يشترط أن يكون المخاطب فاهما للمعنى، ولا يفهم المخاطب ذلك إلاّ إذا كان التجوّز أو كسر الاختيار من العرف اللغوي، أي من سليقة المتكلم والمستمع معا وكفاية كل منهما اللغوية، وهذا هو الجانب الإبداعي في اللغة."[16]

وقد تجاوزت الصورة الفنية في العصر الحديث النظر إليها على أنّها مجرّد صورة شكلية جمالية غايتها التزيين والتجميل الخارجي، إلى صورة حجاجية قائمة على الإقناع ، وأضحت تعتمد ما يضفيه عليها المبدع من خياله ورؤيته للواقع متجاوزا الصور الجزئية إلى صورة كلية تشمل العمل الأدبي كلّه.

مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح:

الحجاج من المفاهيم التي كثر الحديث عنها في الفكر اللساني والنقدي الحديث في العالمين الغربي والعربي، لما يحمله من حمولة معرفية كبيرة قديما وحديثا.

لقد غدا اليوم مصطلح الحجاج من أكثر الآليات اللغوية والفلسفية استخداما في مقاربة النصوص بمختلف أصنافها من خطابية وشعرية وفلسفية وقضائية وقانونية...فاستعمالاته متعددة ، إنّه يشكّل جوهر اللغة وبعدا محوريا في عملية التواصل الإنساني، فاللغة تواصل والتواصل حجاج وإقناع، فما هو الحجاج في اللغة والاصطلاح؟

أ) الحجاج لغة:

الحجاج في اللغة مأخوذ من المادة المعجمية (ح ج ج) التي تدور معانيها حسب ما جاء في لسان العرب على معاني الجدل والخصومة والغلبة والحجة والبرهان.

يقول ابن منظور في هذا الصدد: " حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والحجة البرهان ، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، ويقال رجل محاجج أي جدل، والتحاج التخاصم.

وجمع الحجة: حجج وحجاج، وحاجّه محاجّة وحجاجا: نازعه الحجة. "[17]

وورد في مختار الصحاح أنّ : " الحجة هي البرهان ، وحاجه فحجّه من باب ردّ، أي غلبته بالحجة، وفي المثل لجّ فحجّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جدل والتحاج التخاصم، والمحجة بفتحتين جادة الطريق." [18]

واضح من المادة المعجمية المعروضة أنّ المعنى اللغوي للحجاج يتراوح بين دلالات الخصومة والمنازعة بين طرفين كل منهما يسعى لإثبات رأيه وإقناع الآخر وغلبته بوجهة نظره، فالمغلوب منهما هو المحجوج، والغالب هو الذي يمتلك الحجة والبرهان أي الدليل الأقوى.

ب) مفهوم الحجاج اصطلاحا:

تعدّدت تعاريف الحجاج بتعدّد البيئات العلمية التي تناولته بالدراسة وباختلاف زاوية نظر كل دارس له

يرى طه عبد الرحمان أنّ الحجاج موجود في كل الخطابات بدرجات متفاوتة، لكنّه يجد أرضية خصبة في النصوص والخطابات ذات اللغة الاحتمالية الملتبسة، البعيدة عن اللغة المنطقية الاستدلالية والقواعد الشكلية الصارمة ، إنّه " قائم في اللغة الطبيعية التي تتصف بالاشتراك والاشتباه فهي ملتبسة حمّالة أوجه ما يجعلها تختلف عن لغة البرهان والاستدلال، إنّ " الخاصية المميّزة للخطاب الطبيعي عن غيره من المقالات الصناعية هي أنّ جمله تتركّب من ألفاظ تحتمل تأويلات مختلفة، سواء بأن يُطلق اللّفظ الواحد على مسمّيات مختلفة ويُدلّ به على معان متعدّدة، أو بأن يكون من المتعذّر تعيين مسمّاه تعيينا كاملا ، وتحديد معناه تحديدا دقيقا، إلاّ أنّ هذا الالتباس ليس نقصا في اللّغة الطبيعية ، بل هو مزية فيها يكسبها الطواعية الكافية لجعلها تستجيب لأغراض التبليغ التي لا تحصى." [19]

ويضيف بأنّ الالتباس في اللّغة الطبيعية يجعلها لا تظهر عن خفيّها ومطويّها، ولا تجلو عن ألفاظها المعاني والمعتقدات والمقاصد، ولا يميّز بين مستوياتها، فاللغة الطبيعية

حسبه " تتفاعل فيها المضامين تفاعلا يغنيها ويجدّد فيها عبر النصوص التي تتولّد منها، حتى إنّ المضمون يتقلّب في أحوال، فيكون في نهاية النص غيره في بدايته." [20]

وعلى ذلك يرى طه عبد الرحمان أنّ حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجيا لا برهانيا صناعيا، ويعرّف الحجاج بقوله: " وحدّ الحجاج أنّه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية ، وتوجّهات ظرفية ، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية ، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيّقة... وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها، تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلّما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلّم..."[21]

أمّا الحجاج الفلسفي التداولي فهو " فعالية استدلالية خطابية مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه ، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترض عليه استنادا إلى مواضعات البحث عن الحقيقة الفلسفية" [22]

ذهب أبو بكر العزاوي إلى تعريف الحجاج بأنّه: " تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها."[23]

فالحجاج عند العزاوي لغوي يهتم بالجانب اللغوي في الخطاب ويرى أنّه كامن في اللغة الطبيعية.

ويعتبر الإقناع أساس الحجاج إذ لا حجاج بلا إقناع، والإقناع هو آلية رئيسة لتكوين الآراء والمواقف، يصدر عن وسائل منطقية ولغوية خاصة. فكل نص حجاجي هو نص إقناعي ، وليس كلّ نص إقناعي نصا حجاجيا.[24]

إنّ الإقناع عملية إيصال الأفكار والاتجاهات والقيم والمعلومات، إمّا إيحاء أو تصريحا عبر مراحل معينة، وفي ظلّ شروط موضوعية وذاتية مساعدة ، إذ يهدف المتكلم بخطابه الموجه إلى المتلقين أن يقنعهم ويؤثر في سلوكهم واعتقاداتهم وعواطفهم ، أو يغيّر من أفكارهم ونظرتهم للأشياء من حولهم ، ولذلك نجد " ولبرشرام" و" دونالد روبرت" يعرّفان الإقناع على أنّه " عملية اتصال تتضمن بعض المعلومات التي تؤدي بالمستقبل إلى إعادة تقييم(Réapprisse) إدراكه لمحيطه أو إعادة النظر في حاجاته وطرق التقائها أو علاقاته الاجتماعية أو معتقداته أو اتجاهاته"[25]

ومفهوم الإقناع يرتبط بمفهوم آخر هو التأثير إذ يكاد يكونان متلازمين، فالتأثير إرادة وفعل لتغيير السلوك والاعتقادات أو الآراء ، أو على الأقل تعديلها أو ترسيخ قيم وأفكار جديدة، أمّا التأثر فهو النتيجة المحققة من وراء عملية التأثير، وبهذا ندرك أنّ التأثير مرادف للإقناع، والتأثر مرادف للاقتناع"[26]

حجاجية الصورة الفنية في الأحاديث النبوية:

الصورة الفنية في البلاغة الجديدة التي هي بلاغة الحجاج ، ليست هي الصورة المنظور إليها في بلاغة

المحسنات والوجوه الأسلوبية التي توصف بأنّها بلاغة شكلية تزيينية زخرفية، وإنّما هي آلية وتقنية حجاجية فعّالة في الإقناع والتأثير على المتلقي واستمالته.

يقوم الحجاج في الصورة الفنية على ما تنطوي عليه من عمليات استدلالية أي أنّها قائمة على" الاستدلال بمعنى على معنى، وإثبات معنى مدّعى بواسطة معنى هو منه بمثابة البيّنة" [27]

إنّ الصورة في الحديث النبوي الشريف بألوانها المختلفة مادتها مأخوذة من الحس ومن واقع المخاطبين أي من منظومتهم الفكرية والثقافية وعقائدهم وعاداتهم ، وهذا ما يجعل تقبّلهم لها وتأثّرهم بها سريعا وفعّالا لأنّها لا تخرج عن مألوفهم فيقتنعوا بها، فتكتسي بذلك بعدا استدلاليا حجاجيا قائما على وظيفة الإقناع والتأثير، وفي هذا السياق يشير عبد الله صولة إلى وجود " ترابط منطقي في طريقة حديث القدماء عن الصورة بين اعتبارها استبدالا من حيث بنيتها ، وبين اعتبارها للإقناع والتأثير من حيث وظيفتها، فهي لمّا كانت عندهم تعويضا للمعنى أو المفهوم وتصويرا له، وتقديمه تقديما حسيا يرونه ميزة " الأسلوب القرآني" كانت الغاية منها في رأيهم تبليغ ذلك المعنى في أحسن صورة، وجعل المتلقين يقتنعون به من خلال الصورة الحسيّة التي يظهر عليها، ويخرج فيها، على أنّ هذا ليس ممّا يتميّز به الأسلوب القرآني وحده، وإنّما هو نهج الأحاديث النبوية أيضا، قال المازريّ: "كان الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يخاطب العرب بما تفهم، ويخرج لهم الأشياء المعنوية إلى الحسّ ليقرّب تناولهم لها." [28]

وقد استنتج من دراسته للحجاج في القرآن الكريم، ومن فصله المعقود للحجاج بالصورة أنّ العرب القدماء يشدّدون في دراستهم للصورة القرآنية خاصة ، والأدبية عامة على علاقتها بالمتلقي ويهتمون كثيرا ببعد الصورة الحجاجي من حيث هي تأثير في الوجدان، وإقناع للفكر، ورأى أنّ حديثهم عن بنيتها بوصفها استبدالا، وعن وظيفتها من حيث هي للتأثير والإقناع لا يكاد يختلف كثيرا عن حديث علماء الحجاج المحدثين في الغرب.[29]

والغالب على الأحاديث النبوية الشريفة استخدام التشبيه والتمثيل كأداة أو آلية في الحجاج والإقناع وتقريب المعاني للأذهان ، إذ يكاد يكون أهم خاصية أسلوبية للحديث النبوي الشريف، ذلك أنّ المجاز قائم على المحور العمودي فهو استبدال لمعنى بمعنى آخر، وهو ينطوي على عمليات استدلالية لإثبات المعنى المراد تبليغه وإقناع المتلقي به ف" طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة التي هي الكناية والاستعارة والتمثيل المعقول دون اللّفظ من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللّفظ، ولكنّه معنى يستدلّ بمعنى اللّفظ عليه ويستنبط منه" [30]

إنّ المخاطب وهو يقرأ هذه الأحاديث ويتأمل ما فيها من تمثيلات واستعارات يحاول استنباط المفاهيم والمضامين الخفية الكامنة وراء دلالة المنطوق، أو المعنى المقتضى من دلالة الكلام الظاهرة .

وعملنا هو الكشف عمّا فيها من ألوان المجاز ، وجمال الصورة وقوّة المعنى والتأثير والإقناع.

اعتمد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على الصورة البيانية ذات البعد الحجاجي الإستدلالي الذي يدفع إلى التأويل واستنباط الدلالات الخفية، ذلك أنّ ما يستخدم من تمثيل وتشبيه مبني على أسلوبي الترغيب والترهيب القائمين على القيم الأخلاقية، فهو يعمل على إقناع المكلفين بالأحكام وإحداث تغيير في عقيدتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم من خلال ما يجتهد في إيضاحه لهم من محاسن دعوته ومساوئ ما هم فيه من وثنيتهم، ولعلّ واقعهم الأخلاقي والثقافي وأحوالهم النفسية خير دليل لإقناعهم بفحوى خطابه، فيذعنون له، فالاستمالة النفسية بتحبيب الشيء أو التنفير منه هي من الوظائف الحجاجية للصورة الفنية.

ونجد الرسول صلى الله عليه وسلّم يتخذ من الصورة التشبيهية أو التمثيلية مطية للشرح والتعليل والقياس.

حجاجية التشبيه والتمثيل في الأحاديث النبوية الشريفة:

تنهض وظيفة التشبيه في الأحاديث النبوية على وظيفة البيان والتوضيح، وتقريب المعاني إلى الأفهام بعقد المشابهة والمماثلة بين الأشياء في العالم الخارجي، فوظيفة التشبيه الأساسية هي أن يخرج الأغمض إلى الأوضح، ويقرّب البعيد، ويجعل المجرّد والمعنوي حسّيا مرئيا، وذلك تبعا لحاجة المتلقي إلى التوضيح والتبسيط " ذلك أنّ كيفية تقريب شيء أو معنى عن طريق المشابهة هي التي تجعله محبوبا أو مكروها، مقبولا أو مردودا أي أنّها تخلق حالة ذهنية خيالية من خلال الإحساس الذي يخلقه تشبيه شيء بآخر كتقديم خيالي لعنصر عن طريق استحضار عنصر آخر ليجد المتلقي نفسه ومن قبله الشاعر في موقف ما اتجاه شيء ما"[31]

فالمماثلة تعمّق الصورة والانطباع المراد غرسه في نفس المتلقّي، فإن كان الغرض ترغيبه في تلك الصورة فإنّ ذلك التشبيه يترك خيالا حسنا في نفسه، وإن كان الغرض تنفيره منها ترك التشبيه في نفسه خيالا قبيحا منفّرا.

أمّا التمثيل فيعتبر الآلية الحجاجية الأكثر استخداما في لغة الحديث الشريف لما له من قدرة على التأثير في المخاطبين إذ يدفع المتلقي إلى التأويل والاستنباط للوقوف على عناصر الصورة التمثيلية التي لا يمكن فهم المراد منها بدون ذلك، لطبيعة البنية التركيبية التي يصاغ فيها، وبذلك يصبح المخاطب مشاركا للمتكلم في فهم مضمون التمثيل، ويبني عبر واستدلالات متعددة المعنى الكامن وراءه، ويقتنع به باعتباره هو من توصل إلى استنباطه، فهو مستوحى من واقعه، وهذا ما يزيل طابع الغرابة عنه.

إنّ التشبيه التمثيلي كما حدّه الجرجاني هو ما يكون وجهه هيئة منتزعة من متعدّد أمرين أو أمور فتكون حاجته إلى التأويل ماسة وأكيدة، وذلك على عكس التشبيه الذي يكون الشبه فيه من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأوّل إذ يرى أنّه لا وجود لأيّ تأوّل في مشابهة الخد للورد في الحمرة، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل..[32]

إنّ الصورة التشبيهية المركبة المتمثلة في التشبيه التمثيلي الربط فيها " لا يتمّ بين طرفين بسيطين، وإنّما يكون طرف الصورة الأول وكذلك الآخر_ متعددا ومشكلا علاقة تتداخل وتتجاور وتتتابع سواء أكانت مادية حسية_ وهنا يغلب عليها تصوير الحركة والانتقال والتفاعل_ أم مجرّدة فكرية أو نفسية ...فكلّ جزء من التشكيل لا يقصد وحده وإنّما يقصد مؤثرا في الأجزاء الأخرى وظاهرا بالاقتران بها "[33]

وفيما يلي نماذج مختارة عن الحجاج بالتشبيه والتمثيل في أحاديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم:

- **عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم: " مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات" رواه مسلم[34]**

الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا الحديث الشريف أراد أن يوضح للناس قيمة الصلوات الخمس في تطهير المسلم من الدنايا والذنوب والرجس بمثل النهر القائم بقرب بيت أحد من الناس، وهو يغتسل منه يوميا خمس مرات في اليوم ، فلا شكّ في أنّ هذا الإنسان سوف لن يبقى بجسده أيّ أثر للأوساخ الجسدية فكذلك هو الحال مع الخطايا والذنوب.

والملاحظ أنّ هذه الصورة هي صورة بصرية تستثير الذهن والمخيلة لتصور العلاقة الكائنة بين الصلوات الخمس والنهر الجاري،

والصورة هنا هي عبارة عن تشبيه حذف فيه وجه الشبه فهو مرسل مجمل لخفاء وجه الشبه الذي يعمل ذهن المتلقي على استنباطه.

وتكمن حجاجية التشبيه في مدى إقناعنا بقدرة هذه المماثلة على جعلنا نسلّم بفضل الصلوات الخمس في تطهير المسلم من الذنوب لأنه لا أحد يشك في نظافة الذي يغتسل كل يوم خمس مرات من ماء نهر على بابه، فهذا الحديث يجعل كل متلقي يستخدم مخيّلته البصرية لرؤية النهر الجاري وهو يغتسل منه.

- **وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: " الطّهور شطر الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه برهان ، والصّبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك، كلّ النّاس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها. " رواه مسلم**[35].

في هذا الحديث الشريف عدة تشبيهات بليغة اعتمد عليها الرسول عليه السلام لتوضيح بعض المفاهيم الدينية، فشبّه الصبر بالضياء، والقرآن بالحجة، وسبحان الله بالبرهان.

وقد جعل المتلقي يبحث عن العلاقة بين ركني التشبيه، لأنّ المشبه به هو العنصر المحذوف الذي يعتبر المحل الشاغر، ويكون الوقوف عليه هو جوهر العملية التشبيهية إذ يشكّل معلومة جديدة للمتلقي استنبطها هو ببحثه عنه في الكلام، وملئه للفراغ الذي خلّفه وجه الشبه الضمني معتمدا على كفايته المعرفية والثقافية، وهنا تكمن حجاجيته.

- **عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال: " النّاس معادن كمعادن الذّهب والفضة ، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا ، الأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف." رواه مسلم[36].**

التشبيه هنا مرسل كامل الأركان ما يجعله قريبا من فهم المتلقي فالغرض التوضيحي ظاهر فيه إذ شبه الناس بمعادن الذهب والفضة، والأرواح بالجنود المجندة، ثم ذكر وجه الشبه فهو الخيرة والأفضلية في الأول، والتعارف والائتلاف في الثاني، وعناصر الصورة قائمة على أشياء من كفاية المتلقي المعرفية

والصورة بصرية إذ المخاطَب يستحضر في عينيه صورة الذهب والفضة ويقرن بها الناس في منازلهم بحسب الأفضلية.

- **عن النّعمان بن بشير رضي اللّه عنهما عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال: " مثل القائم في حدود اللّه، والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان اللّذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا." رواه مسلم[37]**

في الحديث صورة تشبيهية بديعة عبارة عن تشبيه تمثيلي شبّهت فيه صورة المؤمن المراعي لحدود الله وصورة المؤمن المتعدي لها بقوم في سفينة بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها، فراح الذين في أسفلها يحاولون إحداث خرق فيها لاستقاء الماء، فلو تركهم من هم في أعلاهم يفعلون ذلك لهلكوا جميعا ، ولو انتهروهم ومنعوهم نجوا جميعا.

إنّ الجامع بين الصورتين هو صورة الهلاك الواقع لا محالة إن لم يأخذ الطرف الآخر بمبادرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإصلاح الوضع القائم.

ولا شكّ في أنّ المتلقي لهذه الصورة يكتشف ما فيها من جمالية وقوة حجاجية لقربها من واقع المتلقي، واستمدادها من صورة بصرية حسية ظاهرة قرّبت المعنى، وساعدت المتلقي على العثور عليه في يسر.

حجاجية الاستعارة في الحديث الشريف:

الاستعارة هي الأخرى آلية حجاجية يكثر ورودها في الحديث النبوي الشريف، إذ نجد الرسول عليه السلام يعتمدها بشكل ظاهر في التعبير عن القضايا العقدية والأخلاقية وفي المعاملات والأحكام.

وهي حسب تعريف عبد القاهر الجرجاني ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، وتكون بنقل اللّفظ من معناه الذي دلّ عليه بأصل الوضع اللّغوي إلى معنى آخر ، فيكون كالعارية، ورأى أنّها تنقسم إلى مفيدة وغير مفيدة ، فغير المفيدة لا تكسب الكلام معنى جديدا ولا تفيده تأكيدا أو اتساعا ومبالغة، ، وكلّ هذه الأمور نجدها قائمة في الاستعارة المفيدة التي هي مدار الشرف والحسن[38] .

- **وعن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: " من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدّنيا نفّس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر اللّه عليه في الدّنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره اللّه في الدّنيا والآخرة، واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل اللّه له طريقا إلى الجنّة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه وتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرّحمة، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم اللّه فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه " رواه مسلم[39]**

الحديث في فضل تلاوة كتاب الله وتدارسه ، وبيان لفضيلة العلم ، وقيمة أهله ، وما يحيطهم الله به من عناية ،التي من أوجهها نزول السكينة عليهم، وفي هذا التعبير صورة استعارية جعل فيها الرسول عليه السلام السكينة وهي أمر معنوي شيئا ماديا من شأنه أن يتنزّل كما ينزل المطر من السماء، وتظهر قيمة هذا الاستخدام المجازي في جعله المخاطَب يتصوّر هذه السكينة تنزل عليه وهو جالس في مكانه من حلقة العلم، ثمّ إنّ الفعل " تتنزّل" يوحي باستمراريتها ما دام في مجلسه باقيا، أي أنّ في الصورة تكثيف لمفهوم السكينة ما يشجع المخاطَب على الإقبال على دراسة كتاب الله.

والأمر نفسه نلمحه في قوله عليه السلام: " وغشيتهم الرحمة" إذ جعل الرحمة محيطة بهم من كلّ جانب فهي تغمرهم ، ممّا يدلّ على عظم فضل الدارس لكتاب الله عند الله تعالى، فالرحمة هنا شبّهت بلباس يشمل لابسه من كلّ النواحي.

- **عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: " من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم بلجام من النّار" رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.**[40]

ورد الحديث في سياق ذمّ كتمان العلم وعدم تبليغه وتعليمه لطالبيه، إذ شبّه حال كاتم العلم عن السائل عنه بحال الفرس واللّجام على فمه مع اختلاف في مادة هذا اللّجام الذي سيلجم به كاتم العلم يوم القيامة فهو لجام من النار أعاذنا الله منها.

لقد استعار الرسول عليه الصلاة والسلام لفظة اللّجام من الفرس ، ووضعها للكاتم فمه عن تعليم الناس بأنّه سيكتمه يوم القيامة بلجام من النار، فالصورة هنا يستحضرها المخاطَب بكل ما فيها من رهبة وخوف وهي صورة بصرية حسية قريبة من الواقع شخّصت حال العالم الشحيح بعلمه، وهذا ما يجعل الصورة حجاجية، لها قدرة التأثير في المتلقي والتغيير من فعله.

- **قال الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم: " تعاهدوا القرآن فوالّذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصّيا من الإبل في عقله "[41]**

نلمح في الحديث الشريف استعارة مكنية في قوله عليه السلام " أشدّ تفصّيا من الإبل" إذ شبّه القرآن الكريم في صعوبة حفظه وسرعة ذهاب المحفوظ منه ، و عدم القدرة على ترسيخه في الذهن بالإبل الشاردة التي تتسم بالصعوبة والوحشية حين فكّها لعقالها بحيث يكون من العسير السيطرة عليها ، فالرسول عليه السلام استعار لفظ "التفصي" الذي هو التفلّت والنفور وهو معنى حسي من الإبل للقرآن الذي هو معنوي ، والجامع بينهما هو سرعة الذهاب والنسيان بالنسبة للقرآن والنفور للإبل.

فالصورة المعبّر عنها بصرية من واقع وبيئة المخاطبين الجاهلية الصحراوية التي تكثر فيها الإبل، وعلى ذلك لا يخفى وجه الشبه عليهم بل يستنبطونه في يسر، ويمتثلوا لقول الرسول عليه السلام دون تردّد إن أرادوا الفلاح، فالاستعارة هنا أدّت الوظيفتين معا الجمالية والحجاجية.

- **قال صلّى اللّه عليه وسلّم: " من خالف الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه"[42]**

شخّص الرسول عليه الصلاة والسلام " الإسلام" في هذا الحديث إذ شبّهه بإنسان باستعارة " الربقة" و"العنق" له، إذ جعل المسلم الخارج عن جماعة المسلمين والمخالف لها معرضا لكل المخاطر، فقد خلع عقيدة الإسلام وما فيها من تحصينات تحصّنه من الضياع في مهاوي الشرك والضلال، فالإسلام بما فيه من تعاليم يشكّل رباطا في عنق المسلم يحميه من الوقوع في الكفر والإلحاد، والخارج عن الجماعة كأنّه تحرّر من ربقة الإسلام وقيوده التي تحميه من الخطأ، وهو بذلك معرّض لكل الشرور والمهالك،فالاستعارة شخّصت هذا المفهوم الذهني ، وجعلته مرئيا بصريا يسهل استيعابه والاقتناع به، فهي حجاجية.

الخاتمة:

بعد تأمّلنا وتحليلنا لطبيعة الصورة الفنية الموظفة في الأحاديث النبوية الشريفة، وبحثنا في الغاية من توظيفها في الخطاب النبوي استطعنا الوصول إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

_ الصورة في الحديث النبوي الشريف آلية أساسية لبناء المعنى وتبليغ فحوى الخطاب.

_ الصورة الفنية في الأحاديث وإن كانت لا تخلو من سمات جمالية فنية فوظيفتها الأولى حجاجية تسعى إلى التأثير في المتلقي وإقناعه بمضمون الخطاب الموجه إليه.

_ إنّها صورة ذات استراتيجية توجيهية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يسعى من خلال ما يوظفه من تشبيه أو تمثيل أو استعارة إلى بيان المعنى والقصد بتجسيده في صورة قريبة من واقع المتلقي ومألوفة لديه، فيذعن له وينقاد ، ويؤمن بما يعرض عليه من أحكام وأخلاق ومعاملات.

_ الأحاديث النبوية تنوّعت فيها الصورة الفنية من تشيه واستعارة وتمثيل، وبدا لنا حضور التشبيه والتمثيل بحظ وافر، لما لهما من قدرة توضيحية كبيرة في تقريب البعيد ، وإجلاء الغامض.

_ حجاجية الصورة الفنية التشبيهية أو التمثيلية أو الاستعارية تكمن في بنائها على عناصر مستوحاة من واقع المخاطبين الاجتماعي والفكري، ومن عاداتهم وتقاليدهم، فهو يحاججهم بما يعرفون وما يألفون.

_ الصورة هي أيضا حجاجية بما فيها من استدلال قائم في البنية المفهومية لها.

الهوامش:

1_ سورة النحل ، آية:44.

2_ سورة العنكبوت، آية:18

3_ عدنان محمد زرزور، سمات البلاغة النبوية بين الجاحظ والرافعي والعقاد، مجلة مركز البحوث السنة

والسيرة، جامعة قطر، 1991، ص:255.

4. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة السابعة، 1418ه

1998م ، ج : 2 ، ص: 17.

5_ الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النّووي الدمشقي، رياض الصالحين، تح: عبد العزيز رباح أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، دار الفيحاء، الطبعة الأولى،1413ه/1992 م، ص: 422.

6_ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، ج: 2، ص: 17 /18 .

7_ ليلى جودي ، فقه التواصل في الخطاب الديني النبوي حقيقته وأسراره، مجلة حوليات جامعة الجزائر 1، مجلة علمية محكمة دوليا، العدد 28 ، الجزء الأول، ص:321.

8- عباس محمود العقاد ، عبقرية محمد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، (د ط ت)، ص: 71 .

9 _ أمال يوسف المغامسي ، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 1437ه/2016م ص: 273.

10_ أبو عثمان الجاحظ ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، 1968م ، ج:1 ص: 75.

11_ الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، ، بيروت، 2007، ص:207. وانظر: أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ص: 330/329.

12_ محمد الدسوّقي، البنية التكوينية للصورة الفنية درس تطبيقي في ضوء علم الأسلوب، ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر

(د ط) ، 2009، ص:144.

13_ المرجع نفسه ، ص: 145.

14_ عبد الوهاب الأزدي، اللغة السامية بحث في دلالة البيان، المطبعة والوراقة الوطني، مراكش، المغرب، الطبعة الأولى، 2009، ص:223/222.

15_ صولة عبد الله، الحجاج في القرآن، ج: 2، ص: 548، نقلا عن جابر عصفور ، الصورة الفنية.

16_ محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ص: 88.

17_ ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، (د ط ت)، مج: 2 مادة (ح ج ج)ص: 228.

18_ الزبيدي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1967 مادة (ح ج ج)، ص: 122- 123 .

19_ طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط : 3 ، 2007، ص: 99.

20_ المرجع نفسه ، ص: 63.

21 _ المرجع نفسه ، ص: 66.

22_ المرجع نفسه ، ص: 66.

23_ أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1426 هـ / 2006م، ص: 16/ 17.

24_ عمارية حاكم ، الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي، دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج

بن يوسف الثقفي، دار العصماء، دمشق، سورية ، الطبعة الأولى ، 2015، ص: 121.

25_ المرجع نفسه، ص: 124.

26_ المرجع نفسه، ص: 123.

27_ صولة عبد الله، الحجاج في القرآن، ج: 2، ص: 548.

28 _ المرجع نفسه، ص: 555.

29 _ المرجع نفسه، ص: 547.

30_ المرجع نفسه، ص: 556.

31_ العربي الذهبي، الخيال والمشابهة في البلاغة العربية، فكر ونقد مجلة ثقافية شهرية، دار النشر المغربية، الدار

البيضاء، السنة الثانية، العدد :17، مارس، 1999، ص: 91.

32 _ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، شرح وتعليق وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة

مصر(د ط ت) ص: 143/ 144.

33 _ جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق ، سوريا،

(د ط) ، 1424 هـ/2003 م، ص: 94.

34_ الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النّووي الدمشقي، رياض الصالحين، ص:279.

35_ المصدر نفسه، ص: 31.

36_ الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النّووي الدمشقي، رياض الصالحين، ص:126.

37_ المصدر نفسه، ص: 79.

38_عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 86_96 .

39_ الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النّووي الدمشقي، رياض الصالحين، ص:94.

40_ المصدر نفسه، ص: 339.

41 _ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تعليق : عبد العزيز بن باز، دار البيان الحديثة، ط:1، 1424هـ/2003م

ص: 776.